إشكالية العقل والإيمان

د. بن طرات جلول[1]

إن التأسيس الفلسفي لوضعية المعرفة في العصر الوسيط ينفتح على تطور الخطاب اللاهوتي الذي صاحب ميلاد تعاليم المدرسة السيكولائية التي ظهرت ملامحها واكتملت تجلياتها في الاعتقاد المسيحي واليهودي لتختزل مبادئ التجربة الإيمانية عند القديسين ورجال الدين على نحو أنطولوجي، ومن ثم تعززت الأصول اللاهوتية لتلك التجربة الفلسفية التي نهض على ضوئها مشروع العقل والإيمان أو ما يعرف في علم الكلام بإشكالية العقل والنقل، هذه الإشكالية تمثل حجر الأساس لنظرية المعرفة عند فلاسفة العصور الوسطى التي انفردت بخصوصيتها في مجال اللاهوت لاسيما توما الإكويني* الذي صاغ تجربته العرفانية من خلال دعوته إلى إحياء فلسفة القدامى بدءا بالتراث اليوناني الذي يمثل مرجعية معرفية قد عبدت الطريق لظهور تلك المذاهب الفلسفية الكبرى التي تناولت مشكلة الله والإنسان والوجود والمعرفة والقيم، وانصرفت إلى البحث في الجوهر والماهية"، كما تناولت فكرة النسبي والمطلق، وبذلك استوعب توما الإكويني خصوصيات هذا النموذج الفلسفي الذي ظهرت ملامحه في الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية، ومبادئ الخطاب السوفسطائي والرواقي من خلال طبيعة الكوجيتو والذي تبلورت من خلاله حدود مشروعية ممارسة العقل أو الإيمان ضمن وضعية خطاب الكنيسة، ومن هذا المنظور انصرف توما الإكويني إلى تقويض هذا الخطاب من خلال دعوته إلى اعتبار الضمير بمثابة صوت الله في الإنسان، ومن ثم يقوم الإيمان مقام العقل باعتبار الخطيئة جوهر هذه الثنائية، ومن هذا المنظور فإن الخطاب العرفاني عند توما الإكويني هو جزء لا يتجزأ من تلك الوضعية الأنطولوجية للاعتقاد المسيحي التي اختزلها رجال الدين ضمن أصولها الفلسفية أين أصبح اللوجوس اليوناني مرجعا للفلسفة المسيحية واليهودية التي تعزز نسقها الداخلي بداية من تلك

---

1 أستاذ محاضر قسم الفلسفة جامعة سيدي بلعباس

* - توما الإكويني: (1225-1274) قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية، أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، وأبو المدرسة التوماوية، في الفلسفة واللاهوت، من أهم آثاره: تعليق علم الجمل، أسئلة متنازع عليها عن الحقيقة، خلاصة في اللاهوت والخلق والخالق.. .

التعاليم اللاهوتية التي أرسى قيمها أفلاطون وأرسطو وأفلوطين والرواقيين لتظهر مظاهر هذا التأثير الفلسفي والديني واضحة في فلسفة توما الإكويني الذي جعل مبدأ "أعقل كي أؤمن" أساس نظريته الإيمانية التي تمثل معلما رئيسيا لطبيعة الكوجيتو الذي تنامى في القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر لتستوعب التعاليم الأساسية للاهوتيين المدرسيين المبادئ الإيمانية لهذا الكوجيتو الذي استمد أصوله الأنطولوجية من فلسفة القديس أوغسطين، "ومن ثم فقد أعلن البابا سنة 1318م أن التوماوية منحة إلهية وأن الإكويني قديس، وقد وجد الكاثوليك في التوماوية «أسلحة فلسفية ينازلون بها الفلسفات الحديثة واللأدرية»[1]، ومن هذا المنظور فإن أصالة الفكر اللاهوتي عند توما الإكويني تظهر من خلال ذلك المنحنى الأنطولوجي الذي ساهم في تقويض تلك النزعة الإسمية والواقعية في الفكر الوسيط لتظهر تجليات التصوف المسيحي، "فالتجربة الصوفية تقتضي القول بملكة خاصة غير العقل المنطقي هي التي يتم بها هذا الاتصال وفيها تتأحد الذات والموضوع، وتقوم فيها البواده واللوائح واللوامع مقام التصورات والأحكام والقضايا في المنطق العقلي، والمعرفة فيها معاشة لا متأملة[2]، هذه التجربة تعكس تلك الوثبة الحيوية التي أحيت في النفس كيانا روحيا اختزل طبيعة تلك المقامات الإشراقية أي انتقل التصوف في خطاب توما الإكويني من العرفان إلى الإشراق حيث تتحرر الأفكار والخواطر ضمن تلك الطاقة الروحية التي تجعل من الصوفي ذلك السلوك الإيماني الذي ينتهجه القديس ليتحد بالمطلق وهذا ما أسس لمبدأ الحوار أو وحدة الوجود فيما بين الله والصوفي.

إن طبيعة المسار الفلسفي الذي سلكه توما الإكويني ينفتح على تلك التعاليم الروحية التي حملت مبادئ نزعته الرهبانية التي جمعت بين نظريته في اللاهوت والكوجيتو الإيماني الذي أقامه على نحو عقلي خارج إطار سلطة الكنيسة، وبذلك انصرفت الفلسفة التوماوية إلى بعث تلك القيم الدينية التي تمنح للإنسان حرية الإرادة دون أن تستعبد ذاته ومن ثم يكمن العقل بمثابة تلك القوة التي تهيئ له النظر لتعزيز نظريته في الإيمان أو ما يعبر عنه باليقين العقائدي، وبذلك ففلسفة توما الإكويني قد تكون امتدادا لفلسفة أوغسطين التي ترجع كل الشرور إلى

1- عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1978، ص18.

2 - المرجع نفسه، ص 70.

عناصر خارج الإنسان نفسه، هذا النموذج الأخلاقي قد استوعبه توما الإكويني ليدفع رجال الدين المسيحي إلى الاتجاه إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة كمصدر فكري يدعمون به دينهم الجديد، ومن هذا المنظور فإنّ العقل البشري لا يستطيع أن يستوعب الوجود الأعلى كونه يمثل الحقيقة العليا وهي الله وهذا ما شكل حجر الأساس لنزعة توما الإكويني التي تجعل من وظيفة العقل فهم ما يوحي به ويقوم بشرحه حيث يمثل سلطة المعرفة، إذ لا يمكن للإنسان أن يعرف شيئا ما والإيمان في نفس الوقت، ومن ثم فإن وضعية العقل في فلسفته تنطلق من الثورة على الفكر الدوغمائي الذي انتهجته الكنيسة التي غيبت سلطة العقل وجعلت من الخطاب اللاهوتي أساس فلسفة العصور الوسطى حيث تعارض العقل مع الإيمان.

لقد حاول توما الإكويني التوفيق بين أرسطو والمسيحية، وبين العقل والإيمان وهي المشكلة التي انصرفت إليها الفلسفة الإسلامية لتحدد مشروعية النظر العقلي ضمن النموذج اليوناني، هذه المشكلة قد أخذت حيزا واسعا في فلسفة توما الإكويني الإيمانية التي تقوم على العقل ومن ثم الانفتاح على لغة المنطق لإثبات وجود الله أين تعززت هذه اللغة بمبادئ العقلانية الأرسطية، ومن هذا المنظور فقد أعاد توما الإكويني صياغة الكوجيتو عند أوغسطين "إذا كنت مخطئا فأنا موجود " ليصبح على هذا النحو: "أعقل ثم أؤمن"، هذه الصياغة الفلسفية قد استعادت من خلالها هذه الثنائية صورة الله في الإنسان والخلاص من أسرار الخطيئة الأولى، ومن ثم فإن إدراك الحقائق المطلقة هي جزء لا يتجزأ من سيرورة سبق العقل للإيمان، أين يصبح الإيمان فضاءا للمعقولات تقترن من خلالها المعاني الكلية بفكر الله، وبذلك استوعبت اللغة التوماوية هذا الاقتران ضمن رحلته الدينية التي جسدت موقع العقل باعتباره النفس في تصورها للمجرد وتعلقها به، "ومن هذه الزاوية فإذا كان أفلاطون يعتقد أن العقل مجرد وسيلة للانتقال من المحسوس إلى المعقول في حركته الجدلية الصاعدة والنازلة"[1]، فإن توما الإكويني يتجاوز هذا الاعتقاد ليختزل المثالية الأفلاطونية ضمن نظريته في المعرفة التي يتعايش في مجالها الإيمان مع العقل خارج سلطة الكنيسة وهيمنتها اللاهوتية.

1 - محمد بيصار، الفلسفة اليونانية، مقدمات – مذاهب، دار الكتاب اللبناني، 1973، ص 94.

إن الحديث عن تاريخ الفلسفة هو مجرد تاريخ لتجليات حركة العقل أين أصبحت فلسفة العصور الوسطى امتدادا مباشرا لتلك الحركة التي جسدت الأصول الميتافيزيقية لتراث القدامى لتظهر ملامح ذلك النموذج الفلسفي الذي أرسى تعاليمه توما الإكويني ليجعل من العقل كائنا روحيا وخالقا لتلك المنظومة الإيمانية التي عززت تلك الصورة الصوفية التي تعطي الأولوية للإيمان بخلاف العقل والفكر ومقولاته ومن ثم فإن طبيعة المنهج الفلسفي عند توما الإكويني قد جعل من المعرفة الصوفية والعقلية تظهر في اللاهوت والفلسفة والسياسة ليصبح العقل ملازما للإيمان وهو ما أسس لولادة تلك النزعة العقلية التي صاحبت ذلك التعارض بين الفلسفات المثالية والواقعية التي نهض على ضوئها الخطاب الأفلاطوني والأرسطي "ليثور العقل على تلك المعتقدات التي صاغت المعرفة الفلسفية اللاهوتية المؤسسة على تعاليم الكنيسة.."[1]، هذه الثورة قد دفعت بالقديس توما الإكويني إلى اعتبار تلك الصراعات اللاهوتية ترجمة للتعارض بين تلك المذاهب الفلسفية التي لزالت تحتفظ بخصوصيتها الميتافيزيقية في اللوجوس اليوناني، إلا أن المعرفة الفلسفية عند توما الإكويني لا تتنكر لطبيعة هذه الصلة التاريخية أين أصبح المظهر الجلي لوضعية العقل لا يخرج عن نطاق "نظرة اليوناني للوجوس باعتباره القانون العام المنظم للظواهر.. "[2]، هذه النظرة قد عززت حضور العقلانية الأرسطية والمثالية الأفلاطونية لاعتمادها على قوة العقل في إدراك الكلي وبه ندرك سائر الحقائق الميتافيزيقة وكل المعقولات الدائمة التي تتميز بالجلاء والوضوح، وبذلك فقد انصرف توما الإكويني إلى توحيد المعرفة الحسية والعقلة في الإيمان، هذه التجربة قد جعلت مفهوم العقل ينطوي تحت مفهوم تلك القوة التي تجعل من الإنسان يشارك الحيوان في الجزئيات ويفارقه في الكليات.

إن المعقول لا يمكن أن ينكشف لنا دون أن يولد في نفس الوقت ضده وهو اللامعقول، هذه الفلسفة قد استوعبها توما الإكويني ليتجاوز ذلك الاعتقاد الذي يحطم دور العقل والحواس في المعرفة لاسيما ما ذهب إليه "الفلاسفة الحدسيين والإشراقيين الصوفيين الذين يرفضون كل المعارف المتأتية عن هاتين الوسيلتن، حيث أن وسيلة الإدراك

---

1 - عبد اللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 298.

2 - محمد علي أبو ريان، الفلسفة ومباحثها مع ترجمة: المدخل إلى الميتافيزيقا دار المعرفة الجامعة، الاسكندرية، 2001، ص 228.

الحقيقي هي الحدس أو النور الإلهي الذي يقذفه الله في صدر من يشاء من عباده.."[1]، هذه النظرة تختلف عن التصوف المسيحي الذي ميز فلسفة توما الإكويني التي تقوم على العقل، ومن ثم فقد دافع عن الحكمة التي جسدت في صورة المسيح، وبذلك فن تلك التعاليم المدرسية التي أسست لتلك الحياة العقلية التي امتزجت بالحياة اللاعقلية لتطفو مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين في العصر الوسيط أين أصبح الحقل الأنطولوجي للنموذج اللاهوتتي الذي انصرف إلى تعقل الإيمان هو دعوة إلى الجمع بين الفلسفة الأرسطية والديانة المسيحية، ومن هذا المنظور فكل تصديق عقلي أو إيمان عقائدي هو بمثابة توقان النفس والعقل إلى معرفة الله باعتباره المطلق أو جوهر الماهيات الثابتة كما أسست له مثالية أفلاطون المطلقة.

إن طبيعة الفلسفة اللاهوتية تنطلق من حقيقة الله التي تتجوهر فيها العقيدة المسيحية ليتعزز هذا الجوهر بفكرة الخلاص والخطيئة أين تنفرد الكتب المقدسة بمنح الإيمان تلك القيمة العقلية التي تجعل من الحكمة حركة يتجه بها العقل إلى الباطن ومن ثم نحو الله، هذه الحركة لا تجعل من الوضعية الأنطولوجية للعقل عند توما الإكويني مجرد جوهر قائم بذاته وإنما هو أساس التجربة الإيمانية التي ورثها عن الكوجيتو الذي صاغه أوغسطين في مؤلفه " فائدة الاعتقاد".

إن القارئ لفلسفة توما الإكويني يجمع على حقيقة مفادها أن نظريته المعرفية مجرد عملية انعكاس معقدة في وعي الإنسان تبدأ بالتأمل الحي للظواهر والأشياء وتنتقل إلى التفكير المجرد ومن ثم إلى التطبيق والممارسة وبذلك فالمثل الأعلى للمعرفة التوماوية يجعل من العقل عاجزا عن البحث في المشكلات الفلسفية بدون سند من الوحي، فضلا عن ذلك فالعقل يطمئن إلى الإيمان لتحمل كل الماهيات في العقل خارج تلك المحسوسات.

إن نضج فلسفة توما الإكويني تنطلق من قدرة العقل الإنساني على تحصيل المعرفة ليصيغ نظريته التوفيقية بين العقل والإيمان، وهو ما واجه تلك الديانات الكبرى- مشكلة أولوية اللاهوت على الفلسفة، فالدين المسيحي في نظر المؤرخين يكمن موضوعه في فكرة الخلاص، إلا أن توما الإكويني قد تجاوز هذه النظرة ليقاوم ميتافيزيقية القدامى "وينفتح على مهمة العقل في تفهم العقائد الدينية، هذا الإيمان

---

1 - مهدي فضل الله آراء نقدية في مشكلات الدين والفلسفة والمنطق، دار الأندلس، بيروت، لبنان ط1، 1981، ص11.

سابق على التعقل معين عليه"[1]، ومن هذا المنظور فالنسق الفلسفي الذي صاغه توما الإكويني قد جعل منطق الكنيسة في تبعية دائمة للفكر الأرسطي أين اكتسبت تلك المسيحية ذلك الموروث الفلسفي الذي لازم ميلاد العقل في العصور الوسطى وهو ما قام عليه منهجه في عقلنة كل ما هو ديني، فالمعرفة عنده تقوم على التوافق والانسجام بين الإيمان والعلم والوحي والعقل واللاهوت والفلسفة فالوحي في نظره يتقدم على العقل ويعلو عليه.

اهتم اللاهوت المسيحي بتلك القضايا الميتافيزيقية الكبرى التي أثارت في الإنسان الميل إلى معرفتها وفي مقدمتها وجود الله باعتباره الحقيقة المطلقة، وهو التوجه الإكويني الذي بنى لاهوته على أساس ثنائية العقل والإيمان متأثرا بأفكار أرسطو طاليس اللوجوسية ليؤسس منهجه الإيماني العقلي الذي اكتملت ملامحه "عندما استطاع القديس أنسلم أن يكون حلقة الاتصال الفعلية والنهائية بين الأوغسطينية والتوماوية بين الإشراق الداخلي والتأمل العقلي"[2]، وبذلك أضحت فلسفة توما الإكويني تشكل مرجعية تاريخية قد ساهمت في ترسيم الفكر الديني الغربي لتصبح رؤيته الأنطولوجية للعقل بمثابة تلك المؤسسة الدينية التي اختزلت وضعية العقل ضمن تلك المعرفة القلبية التي عززت نظريته الإيمانية ومن ثم فإن ماهية العقل تنطلق من ذلك النشاط المعرفي الذي توجهه مقولات الفهم وكل التصورات والمفاهيم التي ينشئها الفكر قصد إدراك كل الحقائق والقضايا الماثلة أمامه ومن هذا المنظور دافع توما الإكويني عن نظريته البرهانية التي جعلت من الإيمان مقدمة للبرهنة العقلية وبذلك فإن الطابع الفلسفي والديني لهذه النظرية يمثل شهادة صريحة بموت الفكر الكنسي الذي أجهض دور العقل في كل تجربة عقائدية، وفي حدود هذه الشهادة يعتقد توما الإكويني أن قوام الفلسفة هو العقل والبرهان والدين أساسه الوحي والإيمان، وهذا ما جعله في البداية يميز بين العقل والإيمان موضحا مسألتي قدم العالم وحدوثه هما حقائق إيمانية لا يمكن للعقل الرهنة عليها وبذلك أوجد وسطا مشتركا بين الفلسفة والدين سماه بعلم اللاهوت الطبيعي وهو العلم الذي يجعل الفلسفة خادمة للدين ويسعى العقل لصياغة تعاليم الوحي بمنظور عقلاني، وبذلك يظهر الأثر الفعال

---

1 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم بيروت، لبنان، ط1، ص ص 25-26.

2 - حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحة في العصر الوسيط أوغسطين- توما الإكويني، أنسلم، منشورات دار التنوير، ، بيروت 1987، ص 137.

للعقل في تكوين المعرفة اللاهوتية، ويعتقد توما الإكويني في موضع آخر أن الأخلاق عقلية، ففي التأمل العقلي تظهر غاية النفس الإنسانية في الحياة الأبدية "ومن هذا المنظور يدعو توما الإكويني لقيام دولة عقلانية مسيحية تترك للسلطة الزمنية استقلالا ذاتيا يناظر ذاك الذي يتركه اللاهوت للفلسفة العقلية"[1].

إن طبيعة الحوار الذي جمع بين الفلسفة التوماوية وفلسفة القدامى قد أسس لتلك الرؤية اللاهوتية التي انفتحت على وضعية العقل الأنطولوجية أين انصرف توما الإكويني إلى إضفاء طابع القدسية على العقل الذي يرسم مساره الديني ضمن ثنائية العقل والإيمان، فالعقل يتناول تلك الصورة التي تقدمها الحواس وتجعلها معقولة بالفعل، ومن ثم فقد استأنس توما الإكويني بالفلسفة الأرسطية ليجعل من العقل قوة ملهمة لا تخرج عن نطاق تلك المبادئ الإيمانية التي استثمرتها العقيدة المسيحية وبذلك فإن معقولية الإيمان تتحرك في حدود العقل، ومن هذا المنظور ذهب توما الإكويني "إلى أن وظيفة العقل هي إرسال الطابع المعقول للكاثوليكية إذا ما نظر إليه ككل مذهبي يعطي للوحي قوته الإيمانية "[2].

يرى الكثير من الفلاسفة أن العقل في استدلالاته قد ينتهي بتساؤلات مما يفتح المجال للشك، ومن ثم فالفلسفة التوماوية قد جمعت بين القوة العقلية والطاقة الإيمانية ليتبلور ذلك النموذج الديني الذي دعا إلى استخدام النظر العقلي في جميع الموجودات، ومن هذا المنظور فقد كان توما الإكويني لاهوتيا قبل أن يكون عقليا، وبذلك فقد أراد أن يوفق بين العقل والعقيدة في تركيب لاهوتي، إذا يعتقد أنه لو وجدت حقيقة عقلية متعارضة مع الدين فلابد أنها سفسطة.

إن الغاية التي ناشدها توما الإكويني لا تخرج عن نطاق تلك المبادئ التي حملها التصوف المسيحي ضمن الميثاق الرسمي للكنسية الذي ينطلق من الإيمان كقاعدة أساسية للاهوت، في حين تظهر مبادئ العقل كحلقة فكرية تتداخل في مجالها، الفلسفة الأرسطية مع الديانة المسيحية التي استوعبت فلسفة توما الإكويني الذي أقام لغته الروحية على الإيمان العقلي ليشكل منهجه في اللاهوت ثورة في الفكر المسيحي، ومذهبا توفيقيا أعاد للمسيحية روحها الدينية خارج هيمنة

---

1 - لمرجع نفسه، ص139.

2 - زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، دار التنوير، بيروت، لبنان، ص 2007.

الفكر الكنسي، ومن ثم النظر والتعقل وسيلة لبناء فكر فلسفي قد أنجب ذلك الحقل اللاهوتي مع التصور الفلسفي والديني لتوما الإكويني وأوغسطين، هذه النظرية تعكس تلك النواحي المعرفية للعقل الذي أصبح يحتفظ بأصوله الأرسطية ضمن التنظير الفلسفي الذي جمع بين الجوانب العقلية والإيمانية في الديانة المسيحية التي رحبت بفلسفة القديس توما الإكويني كونها أحيت الفكر الأرسطي ليكون مرجعا لفلسفته الإيمانية ونزعته العقلية التي نهضت على ضوئها فلسفة الغزالي وابن رشد مشكلة الصراع بين العقل والإيمان، بين الحكمة والوحي، لتظهر حدود النظر العقلي ومشروعيته كجوهر لليقين العقائدي الذي صاحب رحلة الغزالي الصوفية ولفلسفة ابن رشد العقلانية.

لقد عكف العصر الوسيط على بعث تراث القدامى والوقوف على تلك الأساطير التي ميزت الخطاب اللاهوتي في الثقافات الشرقية وهو ما مكن توما الإكويني من الغوص في جميع ميادين الفكر الفلسفي لاسيما السياسة والدين والمعرفة والقيم ليصيغ نظريته في اللاهوت برؤية أرسطية محضة وتجاوز الأفلاطونية المحدثة، لتتمكن الفلسفة التوماوية من تقويض ميتافيزيقية أفلاطون وانصرافها إلى إثبات وجود الله عن طريق الفلسفة الأرسطية التي وجدها توما الإكويني أكثر ملاءمة للفكر اللاهوتي المسيحي، ومن ثم تعززت نظريته في الاعتقاد انطلاقا من تلك النزعة الوجودية التي أعلن عن ميلادها عندما أعطى الأولوية للوجود على الماهية، وبذلك فالعقل يمثل تلك الملكة التي استبطنت عالم الماهية والجوهر كما تناولته العقلانية الأرسطية، ومن هذه الزاوية يدرك الإنسان غايته بواسطة عقله الذي تطبعه الحكمة الإلهية التي تتجلى في ذات الإنسان لتمنحه تلك المقاومة الروحية والمعرفة النورانية التي ميزت اللغة الصوفية، وهذا يعد جانبا من جوانب تبعية الغريزة للعقل لاكتمال ذلك المشروع الإشراقي الذي يتطور وينضج في فلسفة توما الإكويني الإيمانية.

إن طبيعة نظرية المعرفة التي أتاحت للعقل أن يعلن عن ظهوره في فلسفة توما الإكويني لم تتنكر للأصول اللاهوتية للكنيسة في العصور الوسطى وهو ما أدى لولادة الإيمان المسيحي الذي تخلق في رحم الكوجيتو الذي تأرجح بين الخطيئة والوجود والإيمان والعقل هذا الكوجيتو كما أسس له أوغسطين وتوما الإكويني قد رسم معالم الفكر

اللاهوتي الذي نظر للإنسان ككائن مركب من ناسوت ولاهوت، هذه المعالم قد عكست تلك التجربة الفلسفية في لغة القدامى.

إن طبيعة النهج الفلسفي الذي انتهجه توما الإكويني ليصنع أفكاره ويضع المبادئ العامة لنظريته في اللاهوتى هو بمثابة بعثه لتلك القوانين التي استند إليها العقل ليوجه الطبيعة البشرية ضمن فلسفته الإيمانية التي أسست لميلاد " ذلك القانون الطبيعي باعتباره مقياس السلوك البشري والعلاقات الاجتماعية خاصة السياسية، وبذلك عماد الدين النظام السياسي والقانوني، فالسياسة لا تنفصل عن الأخلاق، والعدل لا يحصل عن السلطة... فالعقل هو القانون الأبدي الذي ينظم الكون.."[1]، وبذلك قد منح توما الإكويني للعقل مشروعية وضع القوانين التي لم يشملها القانون الطبيعي، ليتمظهر خطابه الفلسفي جليا عندما أعاد صياغة المفارقة الأفلاطونية بين المحسوس والمعقول ليعقلن نظرته الإيمانية إلى الموجودات، "ومن ثم فالعودة إلى تلك النصوص والكتابات التي حملت واقع الفكر الفلسفي في العصر الوسيط هو ما شكل تلك القطيعة التي انفردت بها الكنسية لتعليم الدين المسيحي.."[2]، ومن هذا المنظور فإن الفلسفة التوماوية هي أساس العقيدة المسيحية التي احتضنت الفكر الأرسطي ليكون العقل بمثابة ذلك الإطار الذي تجتمع عنده نظريته اللاهوتية التي صاغت تلك المقولات العقلية لتكون موطنا لمبادئه الايمانية التي استوعبها رجال الكنيسة، وبذلك فقد استطاع توما الإكويني أن يوجه نزعته العقلية الأخلاقية ضمن حركة العقل الأنطولوجية التي استخلصها لمذهبه اللاهوتي "ليعزز برهانه الوجودي على الله بفكرة الممكن وواجب الوجود..."[3].

إن مظاهر تأثير فلسفة توما الإكويني في الفكر الديني المسيحي تبدو جلية من خلال اعتماده على المنطق الأرسطي لتعزيز الصلة بين الإيمان والعقل، ومن ثم فالعقل لا يستطيع أن يبلغ الحقائق الدينية التي تؤيد حضور البراهين العقلية كمجال أنطولوجي يستوعب ذلك النسق اللاهوتي الذي تتوافق عنده تلك البراهين التي تمنح للعقل والإيمان

---

1 -اميل برهييه، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط والنهضة، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص171.

2 - ماهر عبد القادر محمد، حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفات العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، 2005، ص 150.

3 - محمد يوسف موسى، بيد الدين والفلسفة، دار المعارف، مصر، ط1 1988، ص 75.

سيادتهما كما أرادها توما الإكويني في علاقته مع الكنيسة. وبذلك فكل ما هو معقول في فلسفة توما الإكويني يتطابق وجوهره مع تلك الماهيات الثابتة في الذهن، "ولهذا فقد كان فيلسوفا ذو نزعة عقلانية"[1].

إن الإيمان في الفلسفة المسيحية يتحرك في حدود العقل لتكتمل نظرية المعرفة، ومن ثم تتحدد مراتب الفهم التي بمقتضاها يكون النظر العقلي انعكاسا للعقائد الدينية التي لا تحصل بواسطة الإيمان في الفلسفة التوماوية، "وبذلك أصبح العقل الإنساني يقدر على بلوغ المعرفة الصحيحة بإشراق من الله..."[2]، هذه المعرفة الإشراقية لم تتنكر لسلطة العقل في تعزيز موضوعات الفلسفة اللاهوتية وهو ما يقوي الصلة بين التأمل العقلي المجرد والنور الإلهي، ليساهم ذلك في نشوء علم الكلام في الاعتقاد المسيحي، فقد حاولت الديانة المسيحية الابتعاد عن أساطير القدامى لتعيد صياغة مشروعية العقل ومن ثم الانفتاح على العقلانية الإسلامية، "ومن هذا المنظور فقد استهوت النزعة الأفلاطونية بعوض جوانب فلسفة توما الإكويني لاسيما عندما استخدم أفلاطون العقل كجوهر للحكمة وله الغلبة في تنظيم قوى النفس حتى يحصل مفهوم الكمال الأخلاقي.."[3].

إن طبيعة المجال الفلسفي الذي انتهت عنده فلسفة توما الإكويني الإيمانية لا يخرج عن نظرته اللاهوتية للعقل ودعوته إلى تثمين فلسفة القدامى لتكييف تلك الصلة المنطقية بين العقل والإيمان ضمن أصولها الفلسفية والدينية، وبذلك فقد حاول المؤرخون لحركة الفكر الوسيط أن يجعلوا من الفلسفة التوماوية بمثابة تلك الخلاصة اللاهوتية لفلسفة أوغسطين، وهو ما حدد تلك القواسم المشتركة التي اختزلت نظرتهما الفلسفية لله باعتباره الحقيقة المطلقة، أين يعتقد أوغسطين، "... أن طريق النفس هي الصعود من إدراكها لذاتها إلى إدراك ما فيها من حقائق أزلية أبدية لا يمكن أن يكون لها مصدرا غير الحقيقة المطلقة

1 - محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، أرسطو والمدارس المتأخرة، ج2، دار المعرفة الجامعية، ص 251.

2 - محمد عبد الرحمن مرحبا، الموسوعة الفلسفية الشاملة، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ج1، عويدات بيروت، لبنان 2007، ص 138.

3 - عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ج1، المؤسسة العربية للدراسات ط1، 1984، ص250.

التي هي الله.. ."[1]، وفي موضوع آخر تظهر لغة العقل عند توما الإكويني ملازمة لسياق تلك الأدلة العقلية التي اكتمل نضجها الفلسفي والديني في الإيمان، "هذه اللغة قد جعلت من الفلسفة المسيحية عقيدة تأملية جعلت من الفلسفة تقوم على العقل وحده، بينما الدين يقوم على الإيمان.. ومن ثم كان من الطبيعي أن تثار مشكلة إيجاد فلسفة مسيحية في العصور الوسطى توفق بين العقل والإيمان.."[2].

إن تجلي العقل في الفلسفة ورغبة الإنسان في المعرفة قد حدد مسار فلسفة توما الإكويني التي ربطت بين النظر العقلي والإيمان الديني لتستخلص مذهبا في اللاهوت قد استقام مفهومه الأنطولوجي انطلاقا من تاريخ تطور الفكر الديني في الثقافات الشرقية، أين كانت الأسطورة مرجعا لهذا التطور الذي تعزز بالنموذج اليوناني الذي احتفظ بقوته في الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية ليظهر تأثيره جليا في تلك المبادئ والقيم التي انطلق منها الفكر الديني في العصور الوسطى، ومن ثم أصبحت اللغة اللاهوتية معلما مميزا لطبيعة هذا الفكر الذي أعاد تشكيل تلك المفاهيم الفلسفية السابقة لتكون حجر الأساس للفلسفة اليهودية والمسيحية التي تعايشت مع فلسفة توما الإكويني اللاهوتية التي أعادت ذلك النموذج العقائدي الذي انفرد به رجال الكنيسة في قراءاتهم وتأويلاتهم للنصوص المقدسة خارج منطق العقل لتظهر تلك الهيمنة التي كانت سببا مباشرا في تأخر العقل الأوربي، وهو ما جعل توما الإكويني يضع نصب عينيه صياغة مشروعه الفلسفي ضمن ترقية المعرفة المجردة لتعزيز اليقين الإيماني التي تشبع به، وبذلك فإن الدارس لهذا التراث وما ينطوي عليه من قضايا دينية وفي مقدمتها مشكلة العقل والإيمان قد يصل إلى تلك الحقيقة الفلسفية التي رحبت بها الفلسفة الإسلامية لاسيما تلك التجربة الصوفية والكلامية التي اختزلت مبادئ الفلسفة التوماوية وحولت نزعته الأنطولوجية والعقلية إلى نظرية في الاعتقاد الإسلامي تدافع عن مشروعية العقل في النظر إلى الموجودات والبرهنة عليها، هذه النظرية قد رحبت بها المدارس

1 - موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام في القرون الوسطى، دار عويدات للنشر بيروت، ط1، 1998، ص 67.
2 - إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر ط1، 2007، ص 170.

الغربية المعاصرة وهو ما أعطى للمسيحية نسقها الفلسفي الكامل، وتتويجا للفلسفة التوماوية التي أنصفت العقل لتعتبره المحرك الأساسي لكل اعتقاد لا يصاحبه شك، وبذلك فإن الحياة الحقيقية للمسيحيين تبدأ بالإيمان والعقل ليكتمل نضج هذه الحياة من خلال عودة المسيح لتخليصهم من الخطيئة، ومن هذا المنظور تبقى مشكلة العقل والإيمان من أهم القضايا التي ميزت فلسفة العصور الوسطى التي استوعبها توما الإكويني في كتابة "الخلاصة اللاهوتية" لتستأنس المذاهب الفلسفية الكبرى بطبيعة هذا الإرث الفلسفي والديني الذي يعد إعلانا صريحا عن ميلاد رؤية جديدة لصلة العقل بالإيمان كما أسس لها توما الإكويني في فلسفته اللاهوتية سابقا.